بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 20 أبريل 2017

كيمياء جابر بن حيان:
علم في أحضان الدين

محمد نعيم
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

كيمياء جابر بن حيان: علم في أحضان الدين[1]

[1] ألقيت هذه الورقة في ندوة: «الدين والعلم من منظور فلسفي»، المنعقدة بتاريخ 01 و02 نيسان/أبريل 2015م، اشراف د. صابر مولاي احمد، تنسيق د. عبد النبي الحري. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، بالتنسيق مع مختبر «التاريخ والعلم والمجتمع» بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة شعيب الدكالي.

ملخص:

يهدف هذا البحث الموسوم بـ «كيمياء جابر بن حيان: علم في أحضان الدين» تناول تجربة الكيمياء القديمة، كما عرفتها الحضارة العربية الإسلامية، لاسيما مع جابر بن حيان، باعتبارها أنموذجاً متميّزاً؛ مزاوجاً بين الديني والعلمي في انسجام مدهش، الشيء الذي يدعو إلى تمثُّلها، والوقوف على المفاهيم التي تمَّ التوسُّل بها لبلورة خطاب مزدوج؛ علمي وديني في الوقت نفسه، لكن بمعانٍ خاصّة لكلٍّ من العلم والدين. وهكذا فعند إنعام النظر في الكيمياء العربية، ولاسيّما مع جابر بن حيان، نجد أنّ لها وضعية خاصّة في تاريخ العلوم، حيث رسمت لنفسها إطاراً إبستمولوجيّاً متميّزاً، ومختلفاً عن باقي العلوم الأخرى، كالرياضيات، والفلك، والبصريات، وعلم الحيل...

علاقة العلم بالدين في العصر الحديث:

مع مجيء العصر الحديث أصبح لكلٍّ من العلم والدين وظيفته المخصوصة، فالأوّل، شقَّ لنفسه طريقاً واضحاً، فأصبح يسعى، أساساً، إلى استكشاف العالم المادي، وتوضيح القوانين والآليات المتحكّمة فيه، عماده في ذلك التعقُّل والتجريب دون الالتفات إلى ما يتوافق، أو لا يتوافق، مع التعاليم الدينية، بينما الثاني، بدأ يضيّق من دائرة اهتمامه، فبات يقتصر على النظر في الأمور الغيبية التي لها علاقة بالإيمان والوحي، بعد مقاومةٍ، وجرٍّ، وجذب، بطبيعة الحال، مع العلماء من جهة، ورجال السياسة من جهة ثانية. وهكذا، أصبحنا أمام مجالين يختلفان اختلافاً جذرياً، دون أن يدّعي أحدهما النيّة في التطاول على اختصاص الآخر. وعموماً، يصحُّ القول إنّ العلم، اليوم، يختلف عن الدين من جهة الموضوع والأهداف، فلا جدال في أنّ العلم يتحدّد كنشاط عقلي يهدف إلى فهم ما يحيط بالإنسان من ظواهر غامضة، بينما الدين خطاب وجداني، لا يتقيد بالقواعد العقلية، ولا يتوقّف عندها، يقدّم إجابات لا تهمُّ العلم، وليس في مقدوره اقتحامها، مثل: لماذا خُلِق الإنسان، وما مصيره بعد الموت، ومن هو خالق هذا الكون ومدبّره؟

إنّ هذا الفصل، أو قُل الطلاق، الذي حصل بين العلم والدين، بدايةً مع العصر الحديث، تمّ تأويله تأويلات متباينة، فهناك من يرى فيه السبب الرئيس في تطوّر العلوم، والابتعاد عن التأمُّلات الميتافيزيقية، التي لم تكن سوى عوائق معرفية تشلُّ التقدُّم الذهني للجنس البشري، وهناك من يعتقد أن ذلك الانفصال هو ما جعل العلم يتطوّر، ولكن على غير هدى، حيث إنّ وجهه التقني سار في اتجاه عبثي دون قيود ولا ضوابط، الأمر الذي بات ينذر بعواقب وخيمة على الإنسان ومحيطه.

بعيداً عن هذه الثنائية الضيّقة؛ إمّا دينٌ يشلُّ العلمَ ويعطله، بالتضيّيق على العلماء، وفرض الوصاية عليهم باسم الثوابت العقدية، وإمّا علمٌ جامحٌ، متحرّرٌ من كلِّ الضوابطِ الأخلاقية، ولا يُراعي سوى منطق تطوّره مهما كانت نتائج ذلك التطوّر على مستقبل الإنسان، وعلى بيئته؛ بل على الكوكب الذي يعيش فيه بأسره. ألا يمكن الحديث عن علم يُعمِل العقل لأجل اكتشاف قوانين الطبيعة، ويربط الحقائق بعضها ببعض، ولكن في انسجام تامٍّ مع الدين؟ طبعاً ليس أيّ تديُّن، إنّه، بتعبير ألبرت أينشتاين، التديُّن الكوني (La religiosité cosmique) المتميّز عن عقيدة الحشود الساذجة، تديُّن يتجلّى في اندهاش العالم أمام القوانين الطبيعية، والافتتان بها[1].

كأنموذج لهذا الإمكان الثالث، تحضر تجربة الكيمياء القديمة، كما عرفتها الحضارة العربية الإسلامية، لاسيما مع جابر بن حيان، باعتبارها أنموذجاً متميّزاً؛ مزاوجاً بين الديني والعلمي في انسجام مدهش، الشيء

1- Einstein, Albert, Comment je vois le monde, Flammarion, 2009, p. 27.

الذي يدعو إلى تمثُّلها، والوقوف على المفاهيم التي تمَّ التوسُّل بها لبلورة خطاب مزدوج؛ علمي وديني في الوقت نفسه، لكن بمعانٍ خاصّة لكلٍّ من العلم والدين. وهكذا فعند إنعام النظر في الكيمياء العربية، ولاسيّما مع جابر بن حيان، نجد أنّ لها وضعية خاصّة في تاريخ العلوم، حيث رسمت لنفسها إطاراً إبستمولوجيّاً متميّزاً، ومختلفاً عن باقي العلوم الأخرى، كالرياضيات، والفلك، والبصريات، وعلم الحيل... إلخ. فعلى الرغم من أنّ الجانب الذي حظي بالاهتمام فيها هو ذلك المتعلّق بالطبيعة، من جهة تحويل عناصر بعضها إلى بعض، ومن ثمّ كان التعريف الشائع لها أنّها صناعة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن وجواهر نفيسة، أو هي العلم الذي يُمكِّن من تحضير بعض الأدوية، أو الإكسير الذي يُلقى على المعادن الناقصة لتصيرَ كاملة، فإنّ هناك جوانب أخرى تبقى جديرة بالاهتمام، لاسيما أنّ التحويل عند الكيميائي كان متعدّد المظاهر، وما التحويل المادي إلا واحد منها. ويمكن القول: إنّ جميع مظاهر التحويل التي عني بها الكيميائي كانت متّجهة نحو تحقيق الكمال؛ أي تحويل الناقص إلى الكامل؛ كتحويل المعادن الناقصة إلى أخرى كاملة، وأكملها هو الذهب، وتحويل النّفس بهدف الاكتمال، والالتحاق بالنّفس الكليّة، ثم تحويل الإنسان حتى يصير في مقام الإنسان الكامل، والأشخاص الروحانية.

الكيمياء العربية في أفق العلم الحديث:

صحيح أنّ الكثير من الدارسين، لاسيما العرب منهم، غضّوا الطرف عن الجانب الروحي والديني في كيمياء جابر بن حيان، وسعوا إلى جعله رائداً للكيمياء الحديثة، ومؤسِّساً للعلوم التجريبية، وإسقاط الكثير من الصفات العلمية الحديثة على أعماله، معتقدين، بذلك، إنصافه، وإعادة ما نسب إلى غيره إليه. والأمثلة على ذلك كثيرة؛ فمن قائل: «لقد وضع جابر الأساس العلمي للكيمياء الحديثة. فقد أضاف إلى المعرفة الإنسانية عنصراً جديداً افتقر إليه اليونان، وذلك لاعتماده على التجربة والبرهان الحسّي، وعدم الاكتفاء بالفروض والتحليلات الفكرية الغامضة التي كانت محور المعرفة عند اليونان»[2]، إلى قائل: «يُعدُّ جابر بن حيان أوّل من جعل الكيمياء علماً على الحقيقة»[3]، إلى من يقول: إنّ جابراً صاغ «نظرية الاتّحاد الكيميائي باتّصال

2- الشكيل، علي جمعان، الكيمياء في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، 1989م، ص 44.

3- انظر المقدّمة التي وضعها أحمد فريد المريدي، رسائل جابر بن حيان، دار الكتب العلمية، لبنان، 2006م، ص 5.

العناصر المتفاعلة بعضها مع بعض، وهو ما قال به دالتون[4]، بعد جابر بنحو ألف عام»[5]. ونكتفي بإدراج هذه الأمثلة لرسم معالم هذا التوجُّه الذي كدَّ في أن يجعل من ابن حيان كيميائياً (chimiste) قبل لافوازييه (Lavoisier)، ومؤسّساً للعلم الحديث قبل غاليلي ونيوتن. ولقد اعتمد أصحاب هذا التوجُّه في ذلك تأويل بعض النصوص الجابرية، وانتقاء نصوص أخرى، وإخراجها من سياقها. وهذا التوجُّه مهزوز، في نظرنا، لسببين على الأقلّ:

أوّلاً، لأنّه ينظر إلى كيمياء جابر بن حيان من منطلق العلم الحديث، ولا يبالي بسيرورة تاريخ العلم وتطوّره، فليس يخفى أن العلم، ومنذ لحظة غاليلي، قد رسم ملامحه البارزة، ووضع أسسه الجديدة بعد مخاضات عديدة، وتحوّلات كثيرة، في المجتمع، وفي السياسة، وفي الاقتصاد، فكان أن سلّط كلّ جهوده على الطبيعة، على اعتبار أنّها مدوّنة بلغة الرياضيات، فأصبح علماً بأسباب الظواهر وعللها؛ لذلك نرى أنّه من التعسُّف؛ بل من السُّخف التعامل مع أفكار ابن حيان من هذا المنظور.

ثانياً، لأنّه أراد أن يجعل من جابر ما لم يشأ جابر نفسه أن يكونه. فإذا كانت الكيمياء علماً طبيعياً بمعنى ما، حيث إنّها تروم دراسة التركيب الذري والجزيئي للأجسام وتفاعلاتها، فإن جابراً لم يكن ليرضى بهذه المهمّة فحسب؛ لأنّ الموضوعات المادية أقلُّ شأناً من أن تأخذ كلَّ اهتمام العالم الحقّ. فعلم الكيمياء، كما يعتقد جابر، علمٌ إلهي يتجاوز علم الدنيا، فهو «لا يكون إلا مع شيء يوحيه الله- عزّ وجلّ- أوفى وحي؛ لأنّ هذا العلم يتجاوز إدراكه عقول الناس ومقابلتهم. فإذاً إنّما يكون من كتب الله عزّ وجلّ، كقوله لإبراهيم عليه السلام: فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثمّ اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءاً ثمّ ادعهنّ يأتينك سعيا[6]»[7].

ومع أنّ الناظر في المتن الجابري قد يصادف وجود بعض بوادر الكيمياء الحديثة مبطّنة في هذه الرسالة أو تلك، لكن ذلك لا يكفي لحملنا على الاعتقاد بأنّ الكيمياء، كعلمٍ حديث، قد ولِدت قبل القرن الثامن عشر؛ أي قبل الثورة التي أحدثها لافوازيه (1743 - 1794م).

4- من المعلوم أنّ دالتون عالم كيميائي بعيد عن النشاطات الخيميائية، فما قال به دالتون لا علاقة له بالتأملات الخيميائية الجابرية، لاسيما في نظرية الاتحاد الكيميائي. وحتى نفهم نظريته المذكورة (لنتخيل صندوقاً من الذرّات المغطاة: الذرّات الخضراء مغطاة بخطاطيف. أمّا الذرّات الحمراء فمغطاة بحلقات. ويمكن للذرّات الخضراء أن تتحد مع الحمراء فقط، وأحياناً تتّحد ذرة واحدة حمراء مع ذرتين خضراوين، أو تتّحد ذرتان حمراوان مع ذرة واحدة خضراء، وهكذا. فإذا أخذنا عيّنة من 2 أحمر- 1أخضر وحللناها، فإنّ وزن الأحمر إلى وزن الأخضر سيكون 2: 1. لكن إذا أخذنا عيّنة من 2 أخضر-1 أحمر وحللناها، وقارنّا كتلة الأحمر بكتلة الأحمر في العيّنة السابقة، فإنّ حقيقة هذه النسبة، أيضاً، ستكون نسبة أعداد صحيحة... وعندما قام دالتون بمقارنة كتلة الكربون، وكتلة الأكسجين، بين أوّل أكسيد الكربون، وثاني أكسيد الكربون، وجد أنّها نسبة أعداد صحيحة بسيطة. قارن أوّل أكسيد النيتروجين، وثاني أكسيد النتروجين، ووجد الشيء نفسه. وأصبح أوّل دليل مباشر على وجود الذرّات، معروفاً باسم قانون النسب المتضاعفة». كاتي كوب، هارولد، جولد وايت، إبداعات النار، تاريخ الكيمياء المثير من السيمياء إلى العصر الذري، ترجمة فتح الله الشيخ، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 266، شباط/فبراير، 2001م، ص 194-195.

5- الدمرداش، صبري، قطوف من سير العلماء، جزءان، مؤسّسة الكويت للتقدُّم العلمي، سلسلة الثقافة العلمية، 1997م، ص 1024.

6- [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [260 سورة البقرة].

7- E. J. Holmyard, The Arabic works ofJabir ibn Hayyan, Arabic texts, Paris, 1928, p 81-82.

الكيمياء الحديثة:

واضح أنّ الكيمياء الحديثة قد نشأت علماً مستقلاً مع لافوازيه، لاسيما حين هاجم (الفلوجيستيك)، وفسّر الطبيعة الحقيقية للاحتراق، وأثبت أنّ الأكسجين ليس مجرّد تنوّع لعنصر الهواء، لكنّه مادّة قائمة بذاتها. نعم، فالكيمياء الحديثة هي بنت القرن الثامن عشر، حيث تمّت القطيعة مع الكيمياء القديمة وتأمُّلاتها الفلسفية، لاسيما نظرية أرسطو في العناصر الأربعة، وإرساء قانون بقاء الكتلة كقانون واضح، وتأكيد حاجة أي نظرية كيميائية إلى نتائج التحقُّق التجريبي لتصبح نظرية صادقة، وانصبّ الاهتمام على التجريب، وتمّت دراسة ظاهرة الاحتراق بشكل دقيق، وبذلك تم اكتشاف ثاني أكسيد الكربون والآزوت والهيدروجين، ثم توالى اكتشاف العناصر. وهذه الثورة نفسها لم تكن من باب المعجزة، أو الكشف الصوفي؛ بل كانت ثمرة لجهود الكثير من الكيميائيين، ومن بينهم كيميائيو القرن السادس عشر. وكل هذا يبيّن أنّ الكيمياء، كعلم حديث، أتى وفق شروط تاريخية، وبعد تراكمات نظرية ليست بالقليلة، فحدّد الموضوع بدقّة، ونهج التجريب كأسلوب.

صحيح أنّ جابراً كان يريد فهم قوانين عالم ما تحت القمر، لإعادة تكوينها، والتصرُّف فيها، لكن جهده لم يكن محصوراً هنا؛ بل كان من أجل غاية أسمى، وهي تجاوز الظاهر، والإحاطة بعلم الباطن، الذي هو «العلم بعلل السنن وأغراضها الخاصية اللائقة بالعقول الإلهية»[8]. إذاً، علم جابر علم إلهيّ يطمح إلى فهم النواميس، التي تحدث في عالم ما فوق القمر، وتحكم وتنظِّم عالم ما تحت القمر[9]. ومن هنا، لا يمكن حصر العلم الجابري في دائرة ما هو طبيعي بدعوى أنّ في نصوصه أفكاراً تتطابق مع إنجازات العلم الحديث والمعاصر[10]. ولقد كانت صناعة الكيمياء الجابرية قائمة في جوهرها على مبدأين أساسين: أحدهما مأخوذ من الفلسفة الرواقية، والآخر صادر عن مذهب الطبيعيين الأوائل السابقين على سقراط، من طاليس حتى

8- كراوس، بول، مختار رسائل جابر بن حيان، جمع وتحقيق ونشر مكتبة الخانجي، القاهرة، 1934م، ص 105.

9- Lory. Pierre, Alchimie et mystique en terre d'Islam, Collection (Islam. Spirituel), Verdier, 1989, p. 47.

10- لقد لخّص علي جمعان الشكيل، في الصفحة 49 من كتابه: الكيمياء في الحضارة الإسلامية، أهم إنجازات جابر بن حيان، من بينها التحضيرات الكيميائية الآتية:

- حضّر حمض الكبريت (H_2SO_4)، وسُمّي زيت الزاج، أو الزيت المذيب، الذي حضّره من كبريتات النحاس ($CUSO_4$) الزاج الأزرق.
- حضّر حمض النيتريك (HNO_3)، وقد عرّفه بنوع من المياه الحادّة، واستخدمه في إذابة الفلزات.
- حضّر حمض الهيدروكلوريك (HCL).
- حضّر الصودا الكاوية ($NaOH$)، وربما حضّر كربونات الصوديوم (Na_2CO_3)، وكربونات البوتاسيوم (K_2CO_3).
- حضّر كربونات الرصاص القاعدية ($PbCO_3 . Pb(OH)_2$)، وسمّاه أبيض الرصاص.
- حضّر كبريتيد الزئبقيك وسمي الزنجفر (HgS) بتسخين الكبريت والزئبق.
- اكتشف طريقة فحص النحاس نوعياً، وعرف أنّ مركبات النحاس تكسب اللهب لوناً أزرق.
- ينسب إليه تحضير الكحول، وحمض الخليك، وحمض الليمون بصورتها النقية.

أنبادقليس وأنكساغوراس. وهذا ما يجعلنا نعتقد أنّ كيمياء الرجل، في عمومها، تعتمد بشكل كلّي على فكرة التجاذب والتنافر التي تتألف وتنفصل بمقتضاها جميع المواد والأشياء القائمة في العالم المادي. فالتجاذب المذكور ليس إلا نوعاً من التأثير الباطني، يقوم على أساس المبدأ الفلسفي الرواقي العام، مبدأ التعاطف، فيُقال، إنّ طبيعة ما تجذبها وتفتنها طبيعة أخرى. وهكذا، فجابر يستحضر هذا التصوُّر قائلاً: «وتدبّر قولهم في جميع كتبهم الكيان يمسك الكيان، يعنون بذلك كيان الجسد يمسك كيان الروح الحيوانيين، وقالوا الكيان يغلب الكيان، يعنون بذلك كيان الروح الفاعل الحيّ يغلب كيان الجسد المتهيئة لفعل الروح فيها، ويحيلها، ويردّها روحانية مثلها»[11]. أما المبدأ الثاني، فهو مبدأ وحدة المادة الأولى، ويسمح هذا المبدأ بتحوّل المادّة، وهي خالية من أيّ تعيّن، إلى هذا الجوهر المعين أو إلى ذاك.

ومن بين ما يميز علم جابر عن الكيمياء الحديثة اعتقاده أنّ كيمياءه بمثابة علم شريف لا يمكن فيه الفصل بين الروحي والمادي ولا بين الطبيعي والميتافيزيقي، لأنّ العالم، في نظره، واحد وفي وحدته تكمن الحقيقة. أمّا مسألة تحويل المعادن، وصناعة الذهب، فلم تكن مبلغ همّه ولا شغله الوحيد؛ بل أكثر من هذا نجد أنّ ابن حيان قد عمل على التحذير من الانهماك في طلب صناعة الذهب والفضة، واعتبر ذلك من باب تضييع الأموال، وإتعاب الأبدان، فكتب يقول: «إنّي رأيت الناس قد انهمكوا في طلب صناعة الذهب والفضة بجهل وعسف، ورأيت منهم صنف خادع ومخدوع، فرحمت الفريقين جميعاً لإتلافهم ما رزقهم الله -عزّ وجلّ- من المال في غير موضعه، ولتعب أبدانهم في الباطل، وتشاغلهم عن طلب وجوه المعاش المعروفة الجميلة، وعن الزود للمعاد الذي إليه تصير العباد، وعليه يعدمون، وإليه محتاجون، ورحمت المخدوعين لإتلافهم أنفسهم وأملاكهم أياماً، وتعبهم دينهم وأمانتهم بغرض يسير من الدنيا، فهم أسوأ حالة، وأنا لهم أشدُّ رحمة في إرشادهم وكفّهم عن ذلك»[12].

من خلال هذا القول، نلاحظ حرص جابر على إرشاد من تاه من الكيميائيين، ومحاولته تصويب العمل الكيميائي، وتوجيهه الوجهة الصحيحة، التي هي شيء آخر غير صناعة المعادن النفيسة. فجابر يطمح، قبل كلِّ شيء، إلى إرشاد الكيميائيين إلى حكمة أكبر من حدود الأنشطة الصناعية، حكمة تقتضي تجاوز فهم بادئ الرأي، وإنجاز قفزة ذهنية من أجل إدراك السرّ الأكبر، وهو سرّ حلول الروح في المادة الميتة[13]. وذلك لأنّ الكيمياء، حسب جابر، علم إلهي من وحي الله إلى أنبيائه وأوليائه؛ لذلك يقول: «فو حقّ سيدي، إنّه علم لاهوتي نبويّ؛ إذ ليس في وسع واحد أن ينطق بمثله والسلام»[14].

11- M. Berthelot, La chimie au moyen age, tome III, L'alchimie Arabe, philo press, Amsterdam, 1967, p. 136.

12- Ibid. , p. 132.

13- LORY, Pierre, Alchimie et mystique en terre d'Islam, Collection (Islam. Spirituel Verdier, 1989, p. 47.

14- كراوس، بول، مختار رسائل جابر بن حيان، ص 253.

ويروي طاش كبرى زادة حكاية تزكّي هذا التصوّر اللاهوتي للخيمياء الجابرية، وتبرز المنحى الصوفي للكيميائي، حيث يقول: «يُحكى أنّ واحداً سأل من أحد مشايخ هذه الصنعة أن يعلمه هذه، وخدمه على ذلك سنين كثيرة، فقال: إنّ من شروط تعليم هذه الصنعة تعليمها لأفقر من في البلد، فاطلب رجلاً لا يكون أفقر منه في البلد، حتى نعلمه، وأنت تبصرها. فطلب مدّة رجلاً مثل ما ذكره، فوجد رجلاً يغسل قميصاً في غاية الرداءة والدرن، وهو يغسله بالرمل، ولم يقدر على قطعة صابون، فقال في نفسه: لم أرَ فقيراً يغسل ثوبه إلا ويجد صابوناً، فأخبر الرجل بأني وجدت رجلاً وصفه كيت وكيت، وحاله كذا وكذا، ولم أرَ أفقر منه، فقال ذلك الرجل: والله إنّ الذي وصفته هو شيخنا جابر، الذي تعلمت منه الصنعة، وبكى وقال: إنّ من خاصية هذه الصنعة أنّ الواصلين إليها يكونون مفلسين غاية الإفلاس»[15]. لا غرو أنّ هذه الرواية تبيّن زهد الكيميائي في الثروة والجاه، على الرغم من قدرته على الاغتناء بتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة، ما يعني أنّ الغاية من الصنعة أسمى من أن تسعى إلى الانهماك في المطالب الماديّة، فالأساس في العمل الكيميائي هو تحقيق اكتفاء ذاتي، واستغناء كلّي يجعلانه في مأمن من كلّ حاجة.

الكيمياء علماً عرفانياً:

يتضح أنّ علم الكيمياء، كما يقدّمه جابر بن حيان، شيء آخر غير العرض التقني لأجل تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة. إنّه يقصد، قبل كلّ شيء، أن يقدّم رؤية للعالم تتجاوز بكثير عتبة إطار الأنشطة المخبرية، وتنفتح على آفاق أخرى روحية وميتافيزيقية. إنّ هذا (العلم)، الذي أصبح يُدرس في الزمن المعاصر من طرف مؤرّخي العلوم، والفلاسفة، وعلماء النفس[16]، بدأت حقيقته تتضح شيئاً فشيئاً، كعلم يطمح، من جهة، لفهم القوانين الإلهية التي تخلق، وتنظّم عالم ما تحت القمر، ومن جهة أخرى، يسعى إلى إعادة إنتاج هذه القوانين، والتحكُّم فيها، ومن جهة أخرى، يقبل على ذات الكيميائي لاستكمال فضائلها. فهذا العلم، نظراً لطموحه الكبير، يُلزم الكيميائي بتجاوز الفهم الطبيعي، ومحاولة الارتقاء نحو معرفة سرّ حلول الروح في المادة الجامدة، وأن يوقظ في نفسه الملكات الإدراكية، والقوى الحدسية الكامنة فيه، ومن ثمّ يعمل على تحويل ذاته ووجوده.

وهكذا، فالكيمياء، عند جابر، علم عرفاني بعيدة حقيقته عن أفهام العامّة؛ لأنّ الخيمياء، كما يصرّح، هي: «الحكمة التي من بعض نتائجها العلم، الذي تعرفه العامّة بالكيمياء، وتعرفه الخاصّة بنتيجة الحكمة»[17]. فهنا يتعلّق الأمر بصناعة كونية يطلبها الإنسان؛ لأنّها تكفي جميع حاجياته، وتوصله إلى مرحلة الاستغناء

15- زادة، طاش كبرى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م، ص 319.

16- P. Lory, Dix traités d'alchimie, les dix premiers traités du livres de la Soixante dix de Jabir Ibn Hayyan, Sinbad, paris, 1983, P. 15.

17- H. J. Holmyard. The Arabic works of Jabir Ibn Hayyan, p. 99.

الكلّي. إنّها، في الحقيقة، علم لاهوتي مختلف كلّ الاختلاف عن العلوم الدنيوية، التي تتحصّل عن طريق تعلم بسيط يحصل عن طريق دراسة الظواهر الطبيعية دراسة ظاهرة، بينما الكيمياء الجابرية لا تُحصّل إلا بعد الاتّصال بعالم المعقولات، والأشخاص الروحانية. ففي أكثر من مناسبة، يشير جابر إلى أنّ علمه هو علم الأنبياء والأولياء، قد تعلّموه وحياً من الله، حيث يقول: «إنّ هذا الأمر لم يزل يردُ على الأنبياء -عليهم السلام- تفضُّلاً من الله تعالى، لئلّا يكون بهم حاجة إلى أيدي الناس بوحي يوحي به الله –تعالى- إليهم، ونفد ما كان من ولد آدم، وخلافهم وتفرّقهم في البلاد، وانقطع، فلم يظهر على أن ظهر موسى بن عمران -عليه السلام- من ثمانية أدوية»[18]. فبما أنّ هذه الصناعة علم إلهي، وحكمة ربّانية، وجب صونها عن العامّة، ومظلمي النفوس، حتى وإن كانوا من أقرب الناس، لأجل ذلك قال جابر: «انظر- عافاك الله- لمن تفيد هذا العلم، وإذ ذكروا الفلاسفة في قولهم: لا تعطه ابنك إن كان جاهلاً»[19].

إذاً، نستخلص أنّ «علم» الكيمياء، على الأقل كما هو في المتن الجابري، بعيد كلّ البعد عن الكيمياء كما تبلورت في العصر الحديث، إن على مستوى المفاهيم، أو المنهج، أو الأهداف؛ بل إنّه علمٌ مختلف كلّيّاً عن العلوم الطبيعية. فهو علم نابع، في جانب كبير منه، من النظرة الصوفية للكون، باعتباره وحدة مترابطة الأجزاء؛ إذ لا وجود لفصل بين العلم والدين، كما كان الشأن مع العلوم اليونانية، أو كما سيصير الأمر مع العلوم الطبيعية في العصر الحديث.

وليس يخفى أنّ هناك الكثير من المفاهيم، التي اعتمدها جابر بن حيان لبلورة خطابه الكيميائي، حيث استعملها بمعانٍ متعدّدة حسب مطالبه، ومن بينها النسبة والتناسب المماثلة.

التناسب منهجاً عند جابر بن حيان:

حسب جابر، يطال التناسب كلّ مستويات الوجود؛ لذلك فعن طريق المماثلة[20]، وانطلاقاً من تدبُّر العالِم لنفسه، والإحاطة بمكوّناتها، يستطيع أن يدرك العالم، ويقف على مكوّناته؛ لأنّ هناك تماثلاً وتناسباً بين العالم والإنسان، وما على الكيميائي إلا تحصيل ذلك، والتصرُّف على أساسه؛ أي أنّ علم الكيميائي، بجهة من الجهات، نابع من ذاته، حيث يتحصّل العلم بمعرفة الذات، عن طريق اعتبار أحوال الجسد، والوقوف على تركيب بنيته، ثمّ بتدبير أحوال النفس واعتبارها.

18- Ibid, p. 86.

19- كراوس، بول، مختار رسائل جابر بن حيان، ص 151.

20- يقول محمد عابد الجابري عن المماثلة: «المماثلة عملية ذهنية متعدّدة الصور والأشكال مختلفة المراتب والدرجات. فالمماثلة قد تكون على تشبيه، وقد تكون عل صورة تمثيل، وقد تكون في صورة قياس فقهي، أو نحوي، أو على صورة استدلال بالشاهد على الغائب، كما تكون على صورة تناسب عددي، أو على صورة تناظر». الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 8، 2007م، ص 357.

وهكذا، انطلاقاً من اعتقاده بوحدة النفس، ووحدة المادة، ووحدة الحقيقة، وبأنّ هناك ترابطاً كلّيّاً بين كلّ مستويات الوجود، عمل جابر على النظر إلى الكيمياء كنوع من المقاربة والتفسير الكلّي لهذا الوجود في كلّ مستوياته الروحية والمادية. من هنا، حديثه عن ثلاثة عوالم متماثلة فيما بينها؛ العالم الأكبر، والعالم الأوسط، ثمّ العالم الأصغر. ولقد أنزل جابر بن حيان الكيمياء منزلة الإنسان الأوسط، وهي مكانة وسطى بين الكون وبين الإنسان، فالكون يشبه الإنسان؛ أي أنّه إنسان كبير، والإنسان يشبه الكون، فهو عالمٌ صغير، والكيمياء إنسان أوسط، أو عالم متوسّط. ويترتّب على هذه المماثلة أنّ أهمّ الصفات الإنسانية تسري على الكون من جهة، وعلى الكيمياء أو الصنعة من جهة أخرى؛ يقول جابر: «والعالم عالمان أكبر وأصغر، فالأكبر الجسم العالي، وما فوقه من الجواهر الروحانية، وتدبيره يظهر أفعاله فيه، والأصغر الإنسان، وسميَّ الأصغر بالأكبر؛ لأنّه مثله سواء... والصنعة عالم ثالث؛ لأنّه مثل أحد هذين العالمين، واجتمعت قوى العالم الأكبر في الأصغر، ولم يقضوا فيه أنّه عالم صغير إلا بعلم يقين، وعيان، وتجربة؛ لأنّهم رأوا الكلّ في العالم الكبير نظيراً في العالم الصغير من القوى الباطنة والظاهرة»[21].

وواضحٌ هنا تأثُّر جابر بن حيان بالفكر الهرمسي، ففكرة مماثلة الإنسان الأكبر للإنسان الأصغر كانت قد وجدت طريقها إلى الثقافة العربية الإسلامية عن طريق مجموعة من الكتب المنحولة، ومنها ما يرجع بأصله إلى الفكر الهندي، الذي يوجد فيه التناظر بين العالم الكبير، والعالم الصغير، انطلاقاً من أدقّ مكوّناتهما. ففي أحد الكتب المنسوبة إلى الهنود، والمعنون بـ: (**مرآة المعاني لإدراك العالم الإنساني**)، توجد مماثلة بين مكونات العالم الأكبر، والعالم الأصغر، حيث يقول صاحبه: «الإنسان عالم صغير، فأيّ شيء في العالم الكبير موجود بالكلّ، ففي العالم الصغير موجود بالجزء... فالعالم الكبير كأنّه نفس واحدة، وعقل الكلّ روحه، والباري عزّ وجلّ روح عقل الكلّ. وكذا العالم الصغير، كأنّه نفس واحدة، والنفس الناطقة روحه، فكما أنّ العقل في العالم الصغير داخل فيه خارج عنه لا كدخول الشيء، ولا كخروجه منه. وكذا الباري جلّ وعزّ في العالم الكبير، فمن عرف ذلك عرف الباري، لا إله إلا هو، بالضرورة؛ لأنّ من عرف نفسه فقد عرف ربّه وأعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه»[22].

نعم، لقد ساد الاعتقاد، ومنذ القديم، بأنّ هناك تماثلاً بين الإنسان وبين العالم انطلاقاً من كوسمولوجية موحّدة، يتمُّ التعبير عنها بفضل التناسب الذي يعمُّ العالم بأسره، فالإنسان عبارة عن عالم أصغر؛ لأنّه ملخّص

21- M. Berthelot, La chimie au moyen age, tome III, p. 149.

22- ذكره: بدوي، عبد الرحمن، الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، دار القلم، لبنان، 1982م، ص 46-47.

له، وأيضاً، العالم عبارة عن إنسان أكبر؛ لأنّه صورة مكبّرة له، وهذا يعني وجود تشابه وتماثل تامّ بينهما من جهة البنية، ومن جهة الوظائف[23].

ولقد تبنى جابر هذه الفكرة القائمة على مبدأ المماثلة بين الإنسان والعالم تارةً، وبين الإنسان والإله تارةً أخرى؛ لذلك كان يعتقد بأنّ الإنسان في تناغم تامٍّ مع السماء؛ لأنّه بمثابة عالم أصغر، والعالم نفسه بمثابة إنسان أكبر، وهذا يعني أنّهما يخضعان معاً للقوانين نفسها، فما يسري على الإنسان يسري على العالم، فكما أنّ للإنسان عقلاً ونفساً، فإنّ للعالم، أيضاً، عقلاً ونفساً، مع فارق أنّ هناك الكلّي، وهنا الجزئي، ولهذا يرى جابر بن حيان أنّ العالم كيان متكامل ونابض بالحياة، فالنفس سارية في كلّ جزء من أجزائه. وهكذا فبتدبُّر الإنسان، وإدراك التناسب الموجود بين أعضائه، تتحقّق معرفة العالم، وما يحكم مكوّناته من تناسب.

من الأشياء المميّزة للخطاب الكيميائي عند جابر بن حيان، أوّلاً، وقبل كلِّ شيء، معرفة المماثلات، فالأمر يتعلّق، أساساً، بتأويل صورة كلّ شيء ظاهر. فهذا الظاهر يكون حاملاً لمعنى، وهذا المعنى يكون

23- يقول إخوان الصفا: «وأمّا مماثلة تركيب جسد الإنسان بتركيب الأفلاك؛ وذلك أنّه لما كانت الأفلاك تسع طبقات مركبة بعضها في جوف بعض... كذلك وجد في تركيب جسد الإنسان تسعة جواهر بعضها جوف بعض، ملتفات عليه مماثلة لها، وهي العظام، والمخ، واللحم، والعروق، والدم، والعصب، والجلد، والشعر، والظفر، فجعل المخ في جوف العظام مخزوناً لوقت الحاجة إليه، ولفّ العصب على مفاصله كي يمسكها فلا ينفصل، وحشا ذلك باللحم صيانة لها، ومدّ في خلل اللحم العروق والأوردة الضاربة لحفظها وصلاحها، وكسا الكلّ بالجلد ستراً لها، وجمالاً لها، وأنبت الشعر والظفر من فضل تلك المادة لمأربها، وهذه تسعة جواهر، وتلك بعضها في جوف بعض، وهذه مثال ذلك.

ولما كان الفلك مقسوماً اثني عشر برجاً، وُجد في بنية الجسد اثنا عشر ثقباً مماثلاً له، وهي العينان، والأذنان، والمنخران، والثديان، والفم، والسرة، والسبيلان.

ولما كانت الأبراج ستة منها جنوبية، وستة منها شمالية، كذلك وجدت ستة ثقوب في الجسد في الجانب اليمين، وستة في الجانب الشمال مماثلة لها بالكمية والكيفية جميعاً.

«ولما كان في الفلك سبعة كواكب سيّارة بها تجري أحكام الفلك والكائنات، كذلك وجدت في الجسد سبع قوى جسمانية، وهي القوى الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغاذية، والنامية، والمصوّرة؛ وسبع قوى أخرى روحانية، وهي القوى الحساسة، أعني الباصرة، والسامعة، والذائقة، والشامّة، واللامسة؛ والقوّة الناطقة، والقوّة العاقلة. والقوّة الحساسة مناسبة للخمسة المتحيّرة، والقوة الناطقة مناسبة للقمر، والقوة العاقلة مناسبة للشمس؛ وذلك أن لكلّ واحد من الكواكب الخمسة بيتين في الفلك، أحدهما في حيّز الشمس، والثاني في حيّز القمر، والنيران لكلّ واحدٍ منهما بيت....

كذلك وجد في بنية الجسد لكلّ واحدٍ من القوى الحسّاسة مجريان، أحدهما في الجانب الأيمن، والآخر في الجانب الأيسر. فالقوة الباصرة مجراها في العينين، والقوة السامعة مجراها الأذنين، والقوة الشامّة مجراها في المنخرين، والقوة اللامسة مجراها في اليدين، والقوة الذائقة الشهوانية مجراها في الفم بالجانب الأيمن أشبه، والفرج بالجانب الأيسر أشبه.

أمّا القوّة الناطقة فمجراها الحلقوم إلى اللسان، والقوّة العاقلة فمجراها وسط الدماغ، ونسبة القوّة الناطقة على القوّة العاقلة كنسبة القمر إلى الشمس.

وذلك أنّ القمر يأخذ نوره من الشمس في جريانه من منازل القمر الثمانية والعشرين، وذلك أنّ القوّة الناطقة من العقل تأخذ معاني ألفاظه بجريانه في الحلقوم، فيُعبّر عنها بثمانية وعشرين حرفاً. ونسبة ثمانية وعشرين حرفاً للقوّة الناطقة كنسبة ثمانية وعشرين منزلاً للقمر.

ولمّا كان في الفلك عقدتان، وهما الراقص والذنب، وهما خفيّا الذات، ظاهرا الأفعال، بهما سعادات الكواكب ونحوساتها، كذلك وجد في الجسد أمران خفيّان للذات، ظاهراً الأفعال بهما صلاح بنية الجسد، وصحة الأفعال للنفس، وهما صحّة المزاج، وسوء المزاج. وذلك أنّه إذا صحَّ مزاج أخلاط الجسد، صحّت أعضاؤه، واستقامت أفعال النفس، وجرت على الأمر الطبيعي. وإذا فسد المزاج اضطربت البنية، وعيقت أفعال النفس عن جريها على السداد، وأضرّ ما يكون نحوسه العقدتين على النيرين؛ لأنّها أوكد الأسباب في كسوفها، وكذلك أضرّ ما يكون سوء المزاج على القوّة الناطقة، والقوّة العاقلة؛ لأنّه يعوقها من أفعالهما أكثر وأشدّ.

والعينان في الجسد مناسبتان لبيت المشتري في الفلك، والأذنان في الجسد مناسبتان لبيتي عطارد في الفلك، والمنخران في الجسد والثديان مناسبتان في الجسد لبيتي الزهرة، والسبيلان لبيتي زحل، والفم لبيت الشمس، والسرّة لبيت القمر. والسرّة كانت باب الغذاء في الرحم قبل الولادة، والفم باب الغذاء في الدنيا، والسبيلان مقابلان لهما كتقابل بيتي زحل لبيتي النيرين.

وكما أنّ في الفلك بروجاً فيها حدود، ووجوه، ودرجات، لها أوصاف مختلفة، كذلك للجسد أعضاء، ومفاصل، وعروق، وأعصاب، وعظام، مختلفة يطول شرحها، ومناسبتها بحدود الفلك». إخوان الصفاء، الرسائل، دار صادر، بيروت، 2006م، ج 2، ص 463- 465.

في ذاته الأساس الذي يعتمده العالم في قراءة الظواهر الطبيعية، وهو معنى يُكشَف عن طريق الحواس. ومعلومٌ أنّ هناك مماثلة حاصلة بالتوازي بين مجالات متعدّدة من الوجود، كالتنجيم، والرياضيات، والطبّ، والأقراباذين، فالدماغ رمادي بارد ورطب، وهو، إذاً، من طبيعة الزئبق؛ لأنّ هذا الأخير طبعه البرودة، والرطوبة، والرخاوة، في الظاهر، وباطنه حارٌّ يابسٌ صلبٌ بلا شك؛ لذلك فإنّه يتصرّف تصرُّف المشتري والقمر اللذين يحملان الخصائص نفسها.

التماثل بين النفس الجزئيّة والنفس الكليّة:

إنّ هذه المقاربة تشكّلُ قواعد كونية بالنسبة إلى جابر بن حيان، حيث هناك علاقات دقيقة يستحضرها لفهم العالم، وتقتضي فهماً عالياً. ففي **كتاب (الرحمة)** أكّد جابر أنّ هذا العلم لا يتحصّل إلا للإنسان النبيه، وفي كتاب **(الخواص)** بيّن أنّ طرق الاستدلال العادية لا تكفي في علم الكيمياء؛ بل لابدّ من نوع من الحدس. فجابر يُشير إلى أنّ هناك ترابطاً بين عالم الكيمياء، وموضوع علمه، وهذا الترابط واضح من خلال تماثل البنية بين ذاته، والعلم الذي يشتغل به، وأيضاً العالم الذي يسعى إلى فهمه، وهكذا فإنّ العالِم بفهمه الجيد لعلمه يدرك العالَم، ويدرك ذاته في الآن نفسه. إنّ هذا الفهم الباطني يكشف الوجه الآخر لصناعة الكيمياء، حيث التركيز على ذات الكيميائي، والسير نحو أفق إلغائها، وإحراز وحدة مطلقة بين الذات والموضوع، بين الكيميائي والعالم.

إذاً، بما أنّ هناك تماثلاً بين العالم العلوي، والعالم السفلي، فإنّ التناسب الموجود في عالم ما تحت القمر يكون على غرار ذلك الموجود في عالم ما فوق القمر، حيث يقول جابر: «إن النسب تتأتّى، في هذه الأوضاع، على حسب ذلك، وعلى ما ستراه من أحوال الكواكب في مسيرها، وحيث نذكر عطاء الدرج في الكواكب في سائر مواضعها من الشرف والهبوط، ومسيرها الأوسط الذي هو جمع الطرفين، وأخذ النصفين منها»[24]. من هذا المنطلق يظهر أن كلّ جزء من العالم يتضمّن الكلّ بالقوّة، فإذا كان الكلّ كامناً في الجزء؛ فإنّ النفس الكليّة كامنة في كلّ نفس جزئيّة، وكما أنّ العالم، في نهاية المطاف، واحد، كذلك النفوس كلّها واحدة.

ما يجب تأكيده، هنا، إبراز تلك الرؤية الشمولية للعالم، باعتباره وحدة متكاملة الأجزاء، فجميع الموجودات الطبيعية لها خصائص معيّنة متّصلة بالعالم العلوي، الذي يُعدُّ عند الكيميائي مجالاً للقوى الخفيّة، فالأجرام السماوية والبروج تبدو كيانات حيّة ومتحرّكة تمتلك قوى غامضة لها واسع التأثير على الموجودات الطبيعية، بعلّة أنّ هناك تماثلاً ومشاكلة بين العالم العلوي والعالم السفلي.

24- Cité par Kraus, Paul, Jabir ibn Hayyan ; Contribution à l'Histoire des idéesScientifiques dans l'Islam; II, Jabir et la science Grecque, collection (sciences et philosophie), Les belles lettres; 1986, II, p. 203.

ولأنّ جابر بن حيان مقتنع بوحدة الوجود، واتّصال الحسّي الملموس بغير الحسي، فقد حاول ضبط وتحديد أوجه الوحدة، ومظاهر الاتصال، على اعتبار أنّ العالم عبارة عن جسم كبير حيّ تسري فيه نفس كليّة، فكلُّ جزءٍ من الوجود يتضمّن الكلّ بالقوّة، وهذا يعني أنّ النفس الكليّة حاضرة في كلِّ شيء في العالم، ومن هنا، كان من مهمات الكيمياء أن تكتشف مقدار حلول هذه النفس في كلّ الموجودات.

إنّ هذه السيرورة التركيبية المعقّدة أكثر فأكثر، قد عبّر عنها جابر بن حيان بلغة أفلاطونية محدثة، فبيّن أنّه بالعقل الأوّل، والنفس الكليّة، تنشأ الطبيعة بكلّ مظاهرها. فعالم العقل، وهو عالم الأفكار النموذجية، وعالم النفس الكليّة، وقد نتج عنهما، أوّلاً، الحيوان، والنبات، والجماد، لكن يجب أن نسجّل أنّ هناك وحدة جامعة بين كلِّ هذه العوالم، فعالم الطبيعة ليس منفصلاً عن عالم ما فوق الطبيعة، وطبيعة العلاقات التي تحرّكهما واحدة في كلّ مستوياتها. ففي عالم ما تحت القمر نجد الطبائع الأربعة (البرودة، والسخونة، والرطوبة، واليبوسة) تحرّك العناصر الأربعة (الماء، والهواء، والنار، والتراب)، لكنّها هي في ذاتها لا شيء، إنّها بالنسبة للأشياء الأرضية كالأصفار بالنسبة للأعداد.

إنّ الكيمياء الجابرية كانت بمثابة محاولة شاملة لتفسير الواقع، وتحديد موقع الإنسان في الكون. ويمكن لأيّ ناظر في التصنيف الذي وضعه جابر للعلوم أن يستخلص أنّ الرجل عمل على تقديم تصوّر كامل لعلاقة الإنسان بالكون، وأنّ هذا الأخير جسم حيٌّ مسكونٌ بالنفس، بالمعنى الدقيق للكلمة، ما يعني أنّ جابراً سعى، قبل كلّ شيء، إلى تجميع مجمل العلوم المعروفة في وقته في نسق سببي منحه غاية قصوى؛ وهي تحويل البذرة الصغيرة الناقصة التي هي الإنسان، إلى كائن بشري حقيقي قد يتمكّن من أداء الأمانة الموجودة في عقله وحريته بصورة خفيّة ما يجعل الكيمياء الجابرية، في عمومها، تأخذ بُعداً جديداً بدخولها الأصيل ضمن الأطر الفلسفية والعلمية التي أوجدتها الثقافة العربية الإسلامية في العصر العباسي.

ولا شكّفي أنّ من بين أهم الثوابت في كيمياء جابر بن حيان، عموماً، تلك النظرة الشمولية للعالم، باعتباره منظومة حيّة ومتكاملة لها عناصر متناسقة، والعلاقات بينها خاضعة لقوانين الكم والعدد، حيث يمكن للكيميائي أن يكشفها، ومن ثمّ يستطيع التحكُّم فيها، وتسليط بعضها على بعض، فيصير بذلك قادراً على إعادة إنتاج ظواهر العالم وتغييرها؛ بل يصير قادراً على إبداع ما ليس موجوداً في الطبيعة.

يتصور جابر العالم في مجموعه كوحدة متماسكة كلّ أشيائها متداخلة، حيث يرى أنّ «العالم كلّه مرتّب بعضه من بعض؛ لأنّك لا تجد ناراً إلّا وفيها برودة، ولا برودة إلا وفيها حرارة، ولا يبوسة إلا وفيها شيءٌ من الرطوبة، ولا رطوبة إلا وفيها شيءٌ من اليبوسة، ولا تجد روحاً إلا وفيها شيءٌ من الجسم، ولا تجد جسماً إلّا وفيه شيءٌ من الروح، إلّا أنّه لا يستطيع تفصيل بعضه من بعض، لكثرة أحدهما، وقلّة الآخر، ولاستحالة

القليل إلى الكثير، ولاستغراق القليل»[25]. وفي هذا الإطار، تأتي نظرية الموازين الجابرية، باعتبارها نظرية كيميائية متناسبة مع العالم، الذي تسعى إلى فهمه، وقياس ظواهره، فجاءت مُصاغة على شاكلته.

وبما أن رؤية جابر بن حيان للكيمياء كعلم هي رؤية خاصّة جعلته مختلفاً عن باقي العلوم والصنائع، باعتباره علماً إلهياً لا يُكتسب إلا عن طريق الأنبياء والأئمة والأولياء، فقد كان لنظرية الميزان الجابرية، أيضاً، في كثير من أوجهها، ذلك الحضور الباطني، والارتباط بالأفق الديني والغنوصي. وواضحٌ، من خلال النظر في مختلف رسائله أنّ جابر بن حيّان كان يدرج الفلاسفة ضمن الأنبياء؛ لأنّه يعتقد أنّ: «أكثر الفلاسفة أنبياء، كنوح، وإدريس، وفوثاغورس، وطاليس القديم، وعلى مثل ذلك إلى الإسكندر»[26]. وهذا يعني أنّ الكيمياء علم إلهيّ توارثه الأنبياء والأولياء والأئمة، ولا يصل إلا إلى الأتقياء[27]. وعلى هذا الأساس كان حرص الكيميائيين على أن لا يناله إلا من كان أهلاً له.

وفي هذا الاتجاه العرفاني، نجد جابراً ينزل الكيمياء فوق كلّ العلوم باعتبارها علماً باطنياً، وذلك بيّن من خلال التصنيف الذي وضعه للعلوم في كتاب «الحدود»، فلقد اعتبر أنّ العلوم المذكورة في مجموع رسائله وكتبه تنقسم إلى قسمين: علم الدين وعلم الدنيا، وعلم الدين فيها منقسم، أيضاً، إلى قسمين شرعي وعقلي، والعقلي منها بدوره منقسم إلى قسمين: علم الحروف وعلم المعاني، وكان علم الحروف منقسماً قسمين: نوراني وظلماني، والطبيعي منقسم أربعة أقسام: حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة، وعلم المعاني منقسم قسمين فلسفي وإلهي، وعلم الشرع منقسم قسمين: ظاهر وباطن[28]. ولا يخفى أنّ جابرا قد وضع تصنيفاً للعلوم مختلفاً عن التصنيفات المألوفة في الثقافة العربية الإسلامية، لاسيّما تلك التي نسجت على منوال التصنيف الأرسطي في المنطق، وإحصاء العلوم للفارابي، ففي هذا التصنيف الجابري للعلوم تظهر الباطنية، وتستعيد كلّ حقوقها، حيث إنّ المعرفة ليست مصنّفة حسب المواضيع؛ بل وفق تنظيم عمودي تنتهي بإدراك الكيميائي[29]، وهكذا إنّ جابراً يولي قيمة أساسية لعلم الباطن، باعتباره من العلوم السريّة الخاصّة بالأنبياء والأئمة؛ لأنّ في كشفها وإفشائها لغير أهلها فتنةً وفساداً.

25- M. Berthelot, la chimie au moyen age, tome III, p. 146.

26- مختار رسائل جابر بن حيان، م. س، ص 510.

27- وهنا نجد جابراً يقول: «إن هذا الأمر لم يزل يرد على الأنبياء عليهم السلام تفضلاً من الله تعالى، لئلا يكون بهم حاجة إلى ما في أيدي الناس بوحي يوحي به الله –تعالى- إليهم، ونفد ما كان من ولد آدم وخلافهم وتفرقهم في البلاد، وانقطع، فلم يظهر إلى أن ظهر موسى بن عمران -عليه السلام- وأنه كان يعمله من ثمانية أدوية، وأن قارون سرقه منه» Holmyard, The work of Jabir ibn Hayyan, p. 87.، ثمّ يضيف قائلاً: «إن موسى وساير من أومأنا إليه من الأنبياء والأئمة الصالحين ما عملوا قطّ شيئاً، وإنما أوحى الله -تبارك وتعالى- إليهم بعلم ذلك الحجر» المرجع نفسه، ص 91.

28- للمزيد حول هذه التقسيمات والتفريعات، يُستحسَن الرجوع إلى: مختار رسائل جابر بن حيان، ص 100.

29- Pierre, lory, Alchimie et mystique en terre d’Islam, p. 142.

خاتمة:

لقد لا حظنا أنّ جابراً سار بالكيمياء في اتّجاه مختلف عن باقي العلوم، فحتى وهو يتحدّث عن العمليات المخبرية لم يكن ذلك اهتماماً بما تمليه الخصائص الماديّة؛ بل بهدف الانفتاح على أفق أرحب. إنّه الأفق الروحي والميتافيزيقي، وكأنّنا، هنا، إزاء نوع من الجدل الصاعد، حيث الانطلاق من المتناهي في الصغر إلى المتناهي في الكبر؛ أي من الطبائع (البرودة، والسخونة، واليبوسة، والرطوبة) مروراً بالعناصر الأربعة (الماء، والهواء، والتراب، والنار)، وأشياء العالم المكوّنة منها، وصولاً إلى العالم الأكبر. وهذا لم يتيسّر له إلا لأنّه حافظ على الجانب الديني والروحي في علمه، حيث يسعى العالم إلى ترقية نفسه عن طريق التحلّي بالفضائل التي ترفعه إلى مقامات الكمال، والتخلُّص من الرذائل والشوائب، التي تحول بينه وبين إدراك تلك المقامات؛ أي يصير كائناً علوياً معتدل الطبائع مثله مثل الذهب الخالص، الذي انتفت أدرانه بغير عقاقير؛ بل يصير هو نفسه إكسيراً أو إماماً «لا يتحوّل أبداً، ولا يفسد، ولا يتغيّر، ولا يدخل تحت التلاشي»[30]، إنّ هذا السموّ الروحي يبقى هدفاً أسمى لتدبير نفس الكيميائي، فكما أشرنا سلفاً، لا يقتصر الكيميائي في عمله على تحويل أشياء الطبيعة؛ بل يمتدُّ طموحه إلى تحويل نفسه نحو الأفضل، وذلك أنّ الكيمياء تسعى إلى إيصال صاحبها إلى أعلى درجات المعرفة الممكنة، وإلى إشراق حقيقي يؤدّي به إلى نوع من الخلود[31]، وتلك هي الغاية القصوى للخطاب الكيميائي، كما بلوره جابر بن حيان.

لا شك في أنّ هذا الأنموذج الفكري، الذي عرفته الثقافة العربية الإسلامية قد رسم خطّاً منهجياً في محاولة استكشاف القوانين الطبيعية في مجموعها، وذلك في انسجام مع الروح الدينية، فالعالم الكيميائي، حسب جابر بن حيان، هو من يقف بإجلال أمام دقّة القوانين الطبيعية، ويحاول أن يفهمها بفهمه لذاته أوّلاً، ومن ثَمَّ السموّ بها إلى أعلى المراتب، على اعتبار أنّ كلّ شيء صادر عن جوهر واحد، ويعود إلى الواحد. إنّنا، هنا، إزاء رؤية أحدية للعالم منسجمة تماماً مع الروح العامّة للفكر الديني بشكل عامّ، وليس مع الفكر الإسلامي فقط، كما اعتقد بعضهم[32].

وبهذا التصوّر، الذي صاغه جابر بن حيان لعلم الكيمياء، يكون قد نجح في رفع منزلة الإنسان إلى مرتبة خليفة الله بحقّ، وشرّع أبواب كلّ إمكانات الخلق والإبداع أمام العقل الإنساني، حيث لا وجود للمستحيل أمام طاقاته وقدراته الإبداعية. فما معنى عملية الخلق؟ إنّها ليست سوى نتيجة تفاعل لمجموعة من القوى إذا استطعنا تجميعها استطعنا أن نخلق ما هو موجود، وما هو غير موجود؛ أي صار بإمكان الإنسان

30- M. Berthelot, La chimie au moyen age, tome III, p. 116.

31- Pierre, Lory, Alchimie et mystique en terre d’Islam, p. 123.

32- لوري، بيير، من تاريخ الهرمسية والصوفية في الإسلام، ترجمة لويس صليبا، دار ومكتبة بابليون، ط 3، 2011، ص 125.

تجاوز الطبيعة نفسها، فالطبيعة تخضع في تكوينها لكلّ الأجناس، المعادن، والنبات، والحيوان، ومنه العاقل، إلى قانون الكمّ والعدد، وهو قانون قابل للاكتشاف؛ لذلك بالإمكان، على الأقلّ من الناحية النظرية، محاكاة تدبير الطبيعة؛ بل بالإمكان تحسينه عند الضرورة[33].

المُلاحظ، هنا، أنّ جابراً قد استلهم، في بلورة علمه هذا، أفكاراً ومذاهب عديدة يونانية وغير يونانية، حيث نجد حضوراً للفلسفة المشائية، والفيثاغورية الجديدة، والأفلاطونية المحدثة، والهرمسية، والغنوصية، وعمل على سبكها مع الأفكار الدينية، التي أنتجتها الثقافة العربية الإسلامية آنذاك، إلى الحدِّ الذي جعل منها ثقافة جديدة لها هويتها الحضارية المتميّزة، كلّ ذلك من أجل بناء علم باطني يتأمّل عظمة الطبيعة، ويحاكي قوانينها، وليس منحصراً في تحويل المعادن من الخسة إلى الشرف، أو تحضير الأكاسير لأجل هذا الغرض، أو لعلاج الأمراض المستعصية؛ بل إنّ هدفه الأسمى كان، قبل كل شيء، محاولة الكشف عن القوانين الباطنية المتحكّمة في العالم.

وبعبارةٍ أخرى، الكيمياء الجابرية كانت تسعى إلى الكشف عن القوانين، التي خلق بها الله العالم، فبوساطة هذا العلم يستطيع الكيميائي، بعيداً عن الظواهر الخارجية للتفاعلات الموجودة بين المواد الطبيعية، أن يكشف السرّ العميق لمعنى الحياة؛ لأنّ الحياة، في نظره، تطال كلّ شيء في الوجود. والنفس الكلّيّة؛ أي نفس العالم، حالّةٌ في كلِّ الموجودات الجزئية، سواء الحيوانية، أم النباتية، أم المعدنية، والاختلاف الموجود هو، فحسب، اختلاف في الدرجة والنسب. ومن ثمّ يصبح العالم الحقّ، في نظر جابر، هو من يقترب من بارئ هذه الطبيعة عن طريق محاكاة القوانين التي أودعها فيها، فيصير الصانع الإنساني؛ أي عالم الكيمياء، مقلّداً للصانع الأوّل، الذي هو خالق العالم ومدبّره. إنّ الكيمياء الجابرية، باستحضارها الجانب الديني والروحي، تقدّم نفسها علماً شاملاً من ثلاث جهات: فمن جهة يهدف إلى تفسير قوانين العالم في جميع مستوياته، ومن جهة ثانية تحويل المادة من حال إلى حال، ومن جهة ثالثة تطوير عقل العالِم، والسموّ بروحه.

33- Kraus, II, p. 98.

مراجع

مراجع باللغة العربية:

- إخوان الصفاء، **الرسائل**، دار صادر، بيروت، 2006م.

- بدوي، عبد الرحمن، **الإنسانية والوجودية في الفكر العربي**، دار القلم، لبنان، 1982م.

- بول كراوس، **مختار رسائل جابر بن حيان**، جمع وتحقيق ونشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1934م.

- الجابري، محمد عابد، **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.

- الدمرداش، **قطوف، من سير العلماء**، جزءان، مؤسّسة الكويت للتقدّم العلمي، سلسلة الثقافة العلمية، 1997م.

- الشكيل، علي جمعان، **الكيمياء في الحضارة الإسلامية**، دار الشروق، بيروت، 1989م.

- زادة، طاش كبرى، **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.

- كاتي كوب، هارولد، جولد وايت، **إبداعات النار، تاريخ الكيمياء المثير من السيمياء إلى العصر الذري**، ترجمة فتح الله الشيخ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 266، شباط/فبراير 2001م.

- لوري، بيير، **من تاريخ الهرمسية والصوفية في الإسلام**، ترجمة لويس صليبا، دار ومكتبة بابليون، ط 3، 2011م.

- المريدي، أحمد فريد، **رسائل جابر بن حيان**، دار الكتب العلمية لبنان، 2006م.

مراجع بلغات أجنبية:

- M. Berthelot, La chimie au moyen age, tome III, L'alchimie Arabe, philo press, Amsterdam, 1967.

- A. Einstein, Albert, Comment je vois le monde, Flammarion, 2009.

- E. J. Holmyard, The Arabic works of Jabir ibn Hayyan, Arabic texts, Paris, 1928.

-P. Kraus, Jabir ibn Hayyan; Contribution à l'Histoire des idées Scientifiques dans l'Islam; II, Jabir et la science Grecque, collection (sciences et philosophie), Les belles lettres; 1986..

- P. Lory, Dix traités d'alchimie, les dix premiers traités du livres de la Soixante dix de Jabir Ibn Hayyan , Sinbad , paris, 1983.

- Lory. Pierre, Alchimie et mystique en terre d'Islam, Collection (Islam. Spirituel), Verdier, 1989.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017